

جامعة الأزهر
كلية البنات الإسلامية
بأسيوط

المجلة العلمية

من بلاغة التعبير بالظلمات والنور في القرآن الكريم

إعـداد

د / مرعي سليم مرعي سليم

أستاذ البلاغة والنقد المساعد في كلية اللغة العربية بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الملخص باللغة العربية

يدور البحث حول القيم البلاغية لذكر الظلمات و النور في القرآن الكريم ، حيث ورد ذكرهما بكيفيات متنوعة بتنوع السياقات القرآنية التي وردت فيها.

ففي سياق الموازنة بين الكفر والإيمان ، وما في الكفر من تخبط وضلال وما يقابه في الإيمان من هدى و رشاد ... نرى البيان القرآني يجمع بين الظلمات والنور في قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (الآية : ٢٥٧ من سورة البقرة)

نرى مدى وضوح وبيان تلك الموازنة بين الكفر الذي برز في ثوب (الظلمات) وما تحويه من عدم وضوح الرؤية البصرية التي يبين بها عن عدم وضوح الرؤية المعنوية ، ومدى ضلال العقول و الأفكار التي تقود صاحبها إلى التخبط والضلال الذي ينتهي بصاحبه إلى الكفر ... كما يبرز الإيمان في صورة (النور) الذي تتضح فيه الرؤية البصرية التي تشير إلى وضوح الرؤية المعنوية التي يظهر فيها كل شيء واضحا جليا ، مما يقود صاحبه إلى الإيمان ، وقد أظهر ذلك بوضوح هذه الاستعارة البينة التي انتزعت من الطبيعة المحيطة بكل ذي بصر كما ساهم في بيان تلك الموازنة هذا الطباق بين (الظلمات) و (النور) ، ووقوع هذه الموازنة في سياق أن الفاعل للإخراج من الظلمات والنور هو الله تعالى: " يخرجهم "، ثم هذه المقابلة بين " الذين آمنوا " و " الذين كفروا " ويخرجهم من الظلمات إلى النور " و " يخرجهم من النور إلى الظلمات " ، ومراعاة النظير حيث ذكر لكل فريق ما يناسبه فـ "

الذين آمنوا " يناسبهم " يخرجهم من الظلمات إلى النور " و " الذين كفروا " يناسبهم " يخرجهم من النور إلى الظلمات "، و أيضا من مظاهر الموازنة أن " الله ولي الذين آمنوا " ويترتب على ذلك " يخرجهم من الظلمات إلى النور " و يقابله أن " الذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات "إنه أيضا ورد التعبير بالظلمات و النور تعبيرا حقيقيا فيه بيان قدرة الله تعالى على خلق الأشياء وأضدادها فيقول سبحانه :

﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ (الآية : ١ من سورة الأنعام)

وما في ذلك من مقدرة بلاغية إعجازية تقوم على ترتب جعل الظلمات والنور على (خلق السموات و الأرض) ، وما يناسب خلق السموات والأرض من التعبير بـ " خلق " و هو الإنشاء من العدم ، وما يناسب الظلمات والنور ، وهو التعبير ب " جعل " وهو توليد الشيء من الشيء ، وهو أن الظلمات والنور متولدة عن خلق السموات والأرض ، مع استصحاب الطباق السلبي الذي يظهر فيه الضد حسنه الضد .

ثم نرى مجيء الظلمات وحدها منفردة دون ذكر النور ، في سياقات تتطلبها كما ورد مجيء النور وحده دون الظلمات في سياقات تناسبها.

كما نرى مجيء الظلمات والنور منكرة تارة ، و معرفة ب (ال) والإضافة إلى الضمير .

ولا توجد حالة واحدة من أحوال التعبير بالظلمات والنور جاءت نافرة عن سياقها ، أو مجافية لموقعها ، وسبحان من أنزل هذا القرآن العظيم فقهر به القوى والقدر ، وقيد الخواطر والفكر ، وأخرس الشقاشق ، وعدم نطق الناطق .

Preface

The research presented herein encompasses the rhetorical significance of darkness and light mentioned in the Holy

Qur'an. They were mentioned in diverse ways due to the variant contexts where they were embodied in the Holy Qur'an.
In the context of comparison between belief and disbelief underlying the delusion and darkness disbelief encompasses and the guidance and prudence belief embodies, one finds out that both darkness and light are combined in the Holy Qur'an when Allah, Glory and Exaltation be to He, said " Allah is the protecting Friend of those who believe. He bring them out of darkness into light. As for those who disbelieve, their patrons are false deities. They bring them out of light into darkness. Such are rightful owners of the Fire. They will abide therein."(Translation of verse 257, The Cow Surah.)*
In the aforementioned translation of verse 257, The Cow Surah, it is crystal clear the comparison held between disbelief (represented by darkness, stressing the eyesight blurred vision and hence implying the spiritually blurred vision, which highlights to what extent those minds have gone astray and led their companions to misguidance, and thus disbelief.) and belief (represented by light which embodies clear visual sight, and hence clear spiritual vision, whose companions are eventually overwhelmed by belief.)
Therefore, the aforementioned image has evidently contributed to the explanation of the difference between belief and disbelief employing natural phenomena surrounding all of the observers: darkness and light. Moreover, the contrast between darkness and light has contributed to highlighting the comparison between belief and disbelief. Even more, the doer of the action of getting people out of darkness into light, and vice versa, being

Allah also contributes to the clarification of the aforementioned comparison, as underlined in "bring them out."
The Meaning of The Glorious Koran, an explanatory translation by Marmaduke Pickthall with an introduction by William Montgomery Watt, The Cow Surah, p. 59, verse 257.
In addition, there is a contradiction between "those who believe" and "those who disbelieve" as well as between "bring them out of darkness into light" and "bring them out of light into darkness." The expression "bring them out of darkness into light" suits the believers well, while "bring them out of light into darkness" suits the disbelievers. To add more, another aspect of the comparison under discussion is mentioning that "Allah is the Friend of those who believe," and thus, "He bring them out of darkness into light." On the other hand, one finds the following: "As for those who disbelieve, their patrons are false deities. They bring them out of light into darkness." Also the use of both "light" and "darkness" stresses Allah's power to create things and their antitheses. Consider the following translation of verse 1 in Cattle Surah: "Praise be to Allah, Who hath created the heavens and the earth, and hath appointed darkness and light. Yet those who disbelieve ascribe rivals unto their Lord" (translation of verse 1 in Cattle Surah).**
In the aforementioned verse translation, it was clarified that the creation of the heavens and the earth led to the creation of darkness and light. In other words, the creation of darkness and light was the consequence of the creation of the heavens and the earth. Furthermore, the term "create" was specifically selected for "the heavens

and the earth", as they were originally founded out of nothingness. Nevertheless, the term "appointed" was the best match that fits properly "darkness and light," for it means "generating something out of another already existing thing," which underlines the fact that "darkness and light" are the outcome of the creation of "the heavens and the earth."

In a different context comes the term "darkness" alone not accompanied by the term "light" because of the need of it alone in such a particular context, and the same applies to the term "light."

****The Meaning of The Glorious Koran, an explanatory translation by Marmaduke Pickthall with an introduction by William Montgomery Watt, Cattle Surah, p. 136, verse 1.**

In some occasions, the terms "darkness and light" are found in indefinite form while in other occasions they are found in their definite form. Yet, in all cases, the two terms fit properly the contexts where they are found. Glory be to Allah Who has revealed the Magnificent Holy Qur'an that has defeated all the powers, restricted all the thoughts, and shut up all the controversies.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، خالق السماوات والأرضين ، جاعل الظلمات والنور ، يهدي من يشاء إلى صراطه المستقيم .

والصلاة والسلام على أشرف الخلق أجمعين ، وخاتم النبيين ، ورحمة الله للعالمين سيدنا محمد و على آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد : -

فإن بلاغة كتاب الله تعالى - مع تنوعها بتنوع السياقات الواردة فيها - فإنها بالغة حد الإعجاز القاطع القاهر في توفيتها للأغراض التي سيقت من أجلها مما لا وجود له في بلاغات البشر ، أصحاب القوى والقُدَر البالغة حد الفصاحة والبلاغة البشرية .

وهذا ما نراه واضحا عندما ذكر القرآن الكريم " الظلمات والنور " في مواضع عدة في القرآن الكريم ، ما بين استعمال لهما على حقيقتهما وأصل وضعهما ، واستعمال آخر يخرج بهما عن أصل وضعهما إلى دلالات مجازية تؤدي غايات يتطلبها السياق ، ويتحقق بها المعنى الملائم للمقام .

وسوف يحاول هذا البحث تتبع مواضع التعبير(بالظلمات والنور) في حالاتهما المتنوعة ما بين إفراد واقتران ، وما يكتنف ذلك من تعريف وتنكير ، وتقديم وتأخير ، وحقيقة و مجاز ..... لمحاولة فهم طرائق التعبير القرآني في إعجازه البلاغي ، (الذي أعجز الشقاشق وعدم نطق الناطق) .

ومن هنا جاء البحث في مقدمة وتمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة.

المقدمة : فيها أهمية الموضوع ومنهج البحث وخطته.

المبحث الأول: مجيء الظلمات منفردة في القرآن الكريم.

المبحث الثاني: مجيء النور منفردا في القرآن الكريم.

المبحث الثالث: مجيء الظلمات مقترنة بالنور فيا لقرآن الكريم.

الخاتمة: فيها أهم نتائج البحث.

وسأحاول تتبع الترتيب الوارد في المصحف الشريف ... حول الحالات المتشابهة ما أمكن ذلك ، حتى يتسنى لي استقراء ما ورد في التعبير المتقارب ، لأتبين الفروق الدقيقة بين تلك الصياغات ، وما يترتب على ذلك من فروق في المعاني .

والله – تعالى – أسأل أن يسدد الخطى ، وأن يجنبنا زلة القدم ، ونبوة القلم ، وأن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم ، إنه تعالى ولي ذلك والقادر عليه ، والحمد لله رب العالمين

الباحث

المبحث الأول

مجيء الظلمات منفردة في القرآن الكريم

وردت لفظة " الظلمات " منفردة في مواضع عدة في القرآن الكريم ؛ في سياقات متنوعة، وذلك على النحو التالي:

الظلمات "في بيان حال المنافقين :

وردت كلمة " ظلمات " منفردة عن كلمة " نور " ، وذلك مناسب في بيان حال المنافقين الذين يعيشون دائما في الظلمات والمكر والخداع ، كما بينت تلك الأحوال الماكرة المخادعةَ سورةُ البقرة في موضعين متتاليين ، اشتمل كل موضع منهما على صورة بيانية مختلفة عن الأخرى من حيث البناء التركيبي ، لكنهما متفقتان على إكمال وتأكيد الأحوال النفسية والسلوكية لهؤلاء المنافقين :

الموضع الأول : في قوله سبحانه :

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ * صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ (سورة البقرة الآية ١٧ : ١٨) .

وهاتان الآيتان تحويان صورة بيانية مروعة مكونة من مشبه ، و مشبه به ، وقصة مفصلة للمشبه به يفصّل من خلالها وجع الشبه المراد بيانه ، تشبيه لهيئة المنافقين وأحوالهم مع نفاقهم ، وما هم عليه من ألاعيب مخادعة ينتظرون من خلالها جلب النفع لأنفسهم ...بهيئة مركبة من هيئة رجل استوقد نارا، طالبا منفعتها ، من نحو نور ودفء ، وشعور بالأمن ، والأنس بالنور ... ، لكن ذلك لم يكن وفق ما يرجو ، فلم يمكث له طويلا ، إذ سرعان ما انطفأت

النار ، وفات عليه ما كان يرجوه من النفع ، و بقي في ظلمات لا يبصر من حوله شيئا ، وتكون المفاجأة الفاجعة التي لم يكن ينتظر الوقوع في مثلها ، فيتحسس السمع ، لكنه لم يجد من حوله شيئاً يتهادى لسمعه فيأنس به فهو كأنه أمسى من الصمّ ، ويرمي ببصره باحثا عن نجدة ، ولكنه لا يبصر ما يقوم بنجدته فيصير كأنه من العمي ، ويحاول إيجاد أحد يكلمه فيستغيث به ، فيستأنس به أو يستصرخه لما هو فيه من غم فلا يجد من يلوذ به ، فيدركه ... فلا يجد ، فكأنه أصبح من البكم فهو منقطع سمعا وبصرا و كلاما .... أيَّةُ وحشةٍ هذه ؟ وأية رهبة تلك ؟ ، وأي رعب هذا ؟ لم يكن إذن في ظلمة واحدة ، وإنما تعددت وتضاعفت عليه الظلمات ويبدو أن هذا سر الجمع " ظلمات " هكذا بالألف والتاء ، " وهو جمع " ظلمة "." [1]

ولكن هذا الجمع فيه من إيحاءات إطالة وقت الظلمة ، وعمق رهبتها، وشدة وحشتها ... ما يتناسب وحال المنافق ، ولم يكن هذا الإيحاء لو كان التعبير بـ (الظُلَم)

كما أننا نلحظ أن كلمة " ظلمات " قد استعملت فيما وضعت له ، وهي الدلالة على الظلمة التي هي انعدام النور، لكنها دخلت كعنصر قوي معتبر في بناء تلك الصورة البيانية التمثيلية التي تشرح ما أوقع المنافق فيه نفسه من المهالك ،

وهي بجمعها هذا ، وتنكيرها وقعت في موقعها الذي لا ينوب عنها فيه غيرها، فأوحت بتعدد مسالك الكفر والضلالات التي يحياها المنافقون ، كما دلت

(١) لسان العرب – مادة ظلم .

بتنكيرها على الخوف والرعب الرهيب الغير محدود ، فهم في هذه الرهبة الشديدة المذهلة صم وبكم وعمي ، فهم – إذن – عن ضلالاتهم لا يرجعون .

وإلى مثل ذلك أشار الإمام البغوي في تفسيره لهذه الآيات في قوله : " جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وقتادة ، ومقاتل ، والضحاك ، والسُّدِّي : أن هذه الآيات نزلت في المنافقين ، يقول مثلهم في نفاقهم كمثل رجل أوقد نارا في ليلة مظلمة في مفازة ، فاستدفأ ، ورأى ما حوله ، فاتقى مما يخاف فبينما هو كذلك إذ طفئت ناره ، فبقي في ظلمة خائفا متحيرا ، فكذلك المنافقون بإظهار كلمة الإيمان أمنوا على أموالهم و أولادهم ، وناكحوا المؤمنين ، ووارثوهم، وقاسموهم الغنائم ، فذلك نورهم ، فإذا ماتوا عادوا إلى الظلمة والخوف ". [١]

انتهى كلام الإمام البغوي – رحمه الله تعالى – إلا انه لا يلزم انتظارهم لما بعد الموت ، فليس في الآيات ما يقطع بهذا فيكون المعنى أنهم يأتيهم الخوف والفزع والرعب وقتما يشاء الله تعالى ، سواء في الدنيا أو بعد موتهم ، وإلى ذلك ذهب الإمام ابن كثير – رحمه الله تعالى – [٢]

وكما أضفت كلمة " ظلمات " بإيحاءاتها و ظلالها القدر الكبير على المعنى في الآيتين السابقتين ، بدخولها في بناء الصورة البيانية الدقيقة التفصيل " استوقد نارا – أضاءت ما حوله – ذهب الله بنورهم – تركهم في ظلمات لا يبصرون) ... فإن وقوعها مجرورة بحرف الجر (في) التي تفيد الظرفية ههنا تجعل الظلمات ظرفا لهم تحتويهم ، وتطبق عليهم ، فلا

(١) تفسير البغوي ج ١ ص ٥٣ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ج ١ ص ٥١ .

يستطيعون منها خلاصا كما لا يستطيعون الخلاص من عواقب كفرهم ، يواجهون هذا المصير المترتب على نفاقهم ، والذي جاء على عكس ما يتمنون ، هي ظلمات متراكمة عليهم من انطفاء نورهم ، إلى كونهم وحدهم منعزلين ، لا أنيس لهم ، ولا يكادون يرون ما حولهم ، ولا يسمعون ما يطمئنهم ، ولا يتكلمون فيستصرخون من يغيثهم ... هي صورة بيانية معجزة في تفصيل محنتهم ....

الموضع الثاني :

ولما أن كان البيان القرآني المعجز حريصا على أن يفضح حال المنافقين بتأكيد لا يدع مجالا لإبهام أحوالهم، أردف هذه الصورة البيانية بأخرى تبين جوانب نفسية لهؤلاء الذين ساءت أحوالهم من جميع الجهات ، المادية و النفسية ... فنرى هذه الصورة التي أشبهت سابقتها في طريقة بنائها (أي من مشبه وهو الهيئة المعطوفة بـ " أو " على هيئة المشبه في الصورة السابقة لتفيد مواصلة البيان حول ذات المشبه المتقدم ، ثم قصة مشبه به آخر ليفصل ويؤكد ما تبقى من متعدد صفاتهم ، وخفي أحوالهم التي أغلقوا عليها صدورهم ... ، وذلك في قوله تعالى :

﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ * يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (سورة البقرة من الاية ١٩ : ٢٠) .

نرى أن كلا من الصورتين البيانيتين (السابقة و اللاحقة) قد جاءتا متتاليتين لتوفية غرض بلاغي يتطلبه المقام ، كما صرح بذلك الإمام الزمخشري

– رحمه الله تعالى – في قوله : " ثم ثنى الله سبحانه في شأنهم بتمثيل آخر ليكون كشفا لحالهم بعد كشف ، وإيضاحا عقب إيضاح ، وكما يجب على البليغ في مظان الإجمال أن يجمل و يوجز ، فكذلك الواجب عليه في موارد التفصيل والإشباع أن يفصل ويشبع ". [1]

فقوله (وكما يجب على البليغ في مظان الإجمال .... الخ " هذا تأصيل من الزمخشري – رحمه الله تعالى – لقاعدة من أهم قواعد البلاغة ، بل هي أم قواعد البلاغة ، والغاية المرجوة منها، وهي مراعاة مقتضيات الأحوال ، وأن لكل مقام مقالا ، فالإجمال في موقعه ، والتفصيل في موقعه ، أي رعاية المناسبة ، وهذا هو أصل ما يقول به بعض المعاصرين ، ويدعونه لأنفسهم ، مما يطلقون عليه مصطلح (التداولية) .

نعم الإيجاز يحمد في بابه ، والتفصيل في مقامه ، هذا ما يجب على البليغ ، ولا يجب على الله تعالى شيء ، وأسأل الله تعالى أن تكون هذه عقيدة الزمخشري – رحمه الله تعالى –

المهم أن ورود الصورة البيانية تلو الأخرى تزيدنا تأكيدا و تفصيلا وبيانا،

ثم يقول الزمخشري – رحمه الله تعالى – : " فإن قلت : قد شبه المنافق في التشبيه الأول بالمستوقد نارا ، وإظهاره الإيمان بالإضاءة ، وانقطاع انتفاعه بانطفاء النار فلماذا التشبيه الثاني بالصيب ، وبالظلمات ، وبالرعد ، وبالبرق ، وبالصواعق ؟ قلت : لقائل أن يقول : شبه دين الإسلام بالصيب ؛ لأن القلوب تحيا به حياة الأرض بالمطر ، وما يتعلق به من شُبَه الكفار بالظلمات ، وما

(١) الكشاف ج ١ص ٤٦ .

فيه من الوعد والوعيد بالرعد، والبرق ، وما يصيب الكفرة من الإفزاع والبلايا والفتن من جهة أهل الإسلام بالصواعق ، والمعنى : أو كمثل ذوي صيب ، والمراد كمثل قوم أخذتهم السماء على هذه الصفة فلقوا منها ما لقوا". (١)

وهذا كلام جيد ، إلا أن اعتبار حالهم جملة ، ويكون المشبه به هيئة مركبة من عناصر متداخلة ومتكاملة... أقرب لبيان حال المنافقين الملتفة والمتداخلة.

فقوله تعالى : " أو كصيب ... " جعل الصيب – وهو المطر– جزءا من أجزاء الصورة البيانية ، هذا الصيب لم يكن المبشر بالخير والرغد والنماء ، وإنما هو صيب آخر يحاكي ما انطوت عليه أنفسهم من الشر والسوء ، يطوي في داخله " ظلمات " ، وهي الظلمات الحقيقية المحسوسة التي تصاحب نزول المطر وإن كان المطر غيثا فيه حياة الأرض بمن عليها... إلا أن مطرهم يحمل العذاب والرعب والخوف " فيه ظلمات " ، هو إذن على غير ما يتوقعون من الري والنماء ، يحمل أمرا مخيفا مهولا ، رد فعل لأعمالهم التي يوهمون الناس بأن فيها الخير، وهي في الحقيقة شر ودمار و هلاك ... إن المصاحب للمطر " ظلمات ورعد وبرق " إخافة للأسماع برعده ، وللأبصار ببرقه ، وللقلوب التي تجعلهم " يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق " هي صورة متداخلة العناصر، ولا أستطيع أن أجعل فيها شيئا مقابلا لشيء ، كما رأى بعض أشياخنا أهل التفسير .

وكما ذُكرت كلمة " ظلمات" نكرة جمعا في الصورة الأولى ... ذُكرت بعينها في الصورة الثانية ، وكأنها بيت القصيد ، والجامعة الملخصة لصفات

---

(١) الكشاف ج ١ ص ٤٦ .

النفاق والمنافقين ، فهي وإن كانت ذات دلالة حسية هنا ، ومستعملة فيما وضعت له ، إلا أنها توحي وتذكّر السامع بظلمات المنافقين جميعها الحسي منها والمعنوي ، بمختلف الأنواع و الأشكال ، وذلك بمجيئها نكرة ، جمعا بالألف والتاء ،

إلا أنها هنا لم تأت مجرورة بالحرف (في) ، فلم تكن الظلمات هنا ظرفًا لهم كما هو الحال في الصورة الأولى : " في ظلمات "، وإنما الظلمات في هذه الصورة مظروفة محتواة داخل الصيب من السماء " فيه ظلمات " ، ولم تكن الظلمات وحدها محتوى الصيب ، وإنما عطف على الظلمات التي اشتمل عليها الصيب " رعد وبرق " يملأ بالرعب قلوبهم " يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت "، فالظلمات هنا قد اختلطت بما يضاعف رهبتها ، ويزيدهم غما بعد غم ، فقد صاحب الظلماتِ الرعدُ والبرقُ الذي يخلع قلوبهم من مواضعها فيكادون يجعلون جميع أصابعهم في آذانهم حذر خروج أنفاسهم من شدة الهول المميت الذي يتوقعونه محدقا بهم .

وأي وصف وصف به المشبه به فهو عنصر داخل في بناء صورة معناه ومعتبر في ملاءمة المقام ، وإصابة الغاية ،

وهذا الوصف للبرق في قوله سبحانه :﴿ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ﴾ يوحي بمعاني تذبذب المنافقين في أقوالهم و أفعالهم وعقيدتهم .

بيان حال الكافرين :

وكما رأينا أن المنافقين بهذا القدر من الشر والضرر في أنفسهم ، وعلى غيرهم ، فإن الكافرين لم يكونوا بأقل منهم ضررا ولا خطرا على أنفسهم وعلى غيرهم إلا أن خفاء أحوال المنافقين ، ومحاولة ستر أنفسهم ونفاقهم ... يجعلهم أسفل دركة من الكافرين ، إذ إن الكافرين قد يظهر حالهم فيتقى شرهم بخلاف المنافقين الذين يظهرون خلاف ما يبطنون ، فيصعب كشفهم وبالتالي تجنبهم ، ولهذا جعل الله تعالى مقامهم في الدرك الأسفل من النار ليزيدهم فوق العذاب نكالا أما الكافرون فنرى أن البيان الأعظم يظهر لنا إبطال أعمالهم الصالحة في الحياة الدنيا ، ليزيدهم مع العذاب حسرة على ما افتقدوه ، بسبب عدم إيمانهم بالله تبارك وتعالى .

وإذا كانت كلمة "ظلمات " قد شاركت بمعناها و إيحاءاتها في بناء الصورتين البيانيتين السابقتين ، بأن وقعت في مواقع مكملة لجوانب الصورة البيانية ، كما هي في صورة مستوقد النار، الذي آل حاله إلى التخبط في الظلمات وفي صورة الصيب الذي اشتمل على الظلمات ..، فإن الصورة البيانية الثالثة وقعت الظلمات قطبا و أساسا ، دارت حوله المكملات للصورة ،

ففي بيان حال الكافرين وأعمالهم – وإن كانت صالحة في ظاهرها – إلا أن كفرهم أفسدها ودمرها عليهم ... فنرى ذلك في قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ * أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ (سورة النور من الآية ٣٩ : ٤٠)

نرى كيف تتابعت صورتان بيانيتان وتضافرتا على وصف أعمال الذين كفروا ٠

الأولى :

شبهت أعمال الكافرين بسراب بقيعة ، من حيث كونه يبرق بالأمل فيحسبه الظمآن ماء ...، ثم سرعان ما ينقطع هذا الأمل عند الوصول إلى حقيقته وهي صورة حسية مركبة ، تبين أثرا نفسيا بالغ القوة ، وشديد الوقع الأليم على نفوسهم .

الثانية :

وشاهدنا في الصورة الثانية ، في قوله تعالى : " أو كظلمات ..." والتقدير: (أعمال الذين كفروا كظلمات) لدلالة الآية السابقة عليه في قوله تعالى : " والذين كفروا أعمالهم كسراب ...)

نلحظ ان كلمة " ظلمات " وقعت في بداية بناء الصورة ، فكانت هي العنصر الأول من عناصر بناء المشبه به ، أو لنقل هي المشبه به الموصوف بصفات معتبرة في بيان وجه الشبه ، فكانت الأساس الذي بنيت عليه سائر عناصر الصورة ، وأنها ليست ظلمات عادية ، وإنما هي (ظلمات في بحر لجي) ، والظلمات مجتمعة متراكمة رهيبة ، والبحر عميق مهيب مهلك ، وهو (لجي) أي ذو أمواج هائجة متلاطمة ، ثم إن أمواجه هذه قد تعدت الإلف البشري ، فرغم كونه (لجي) فإنه " يغشاه موج ، من فوقه موج ، من فوقه سحاب " هي إذن ظلمة في ظلمة فوقها ظلمة ، فماذا عسى ذلك أن تكون درجة رهبته وخوفه ورعبه ... إلى أن تكرر ذكر الظلمات مرة ثانية ، ليضاعف من رهبته وهوله " ظلمات بعضها فوق بعض " ، وليست الظلمة مما يتعارفه الناس ، وإنما هي أشد درجات الظلمات إلى درجة أن الإنسان لا يرى فيها شيئا على

الإطلاق ، حتى أقرب الأشياء إليه ، وهي يده التي يتقي بها السوء يفتقد رؤيتها " إذا أخرج يده لم يكد يراها "، اللهم لا تحرمنا نورك " ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور "

يقول البقاعي في تفسير هذه الآية :" فقال عاطفا على (كسراب) قوله (أو) للتخيير أي أعمالهم لكونها لا منفعة لها كسراب ، ولكونها خالية عن نور الحق (كظلمات) أو للتنويع ، فإنها إن كانت حسنة الظاهر فكالسراب ، أو قبيحة فكالظلمات ، أو للتقسيم باعتبار وقتين ، كالظلمات في الدنيا ، والسراب في الآخرة .. (لجي) أي ذي لج... هو إشارة إلى أنه عميق لا يدرك له قرار ، لأن اللج معظم الماء ..... والمقام للتهويل ... (من فوقه) أي هذا الموج (موج) آخر (من فوقه) أي هذا الموج الثاني المركوم على الأول (سحاب) قد غطى النجوم ... ولما كان هذا أمرا مهولا أشار إلى هوله و تصويره بقوله (ظلمات) أي من الموجين والبحر والسحاب (بعضها) ولما كان المراد استغراق الجهة لم يثبت الجار ، فقال (فوق بعض) متراكمة ، فلذلك يبعد كل البعد أن ينفذ فيها بصر ولذلك قال: (إذا أخرج) أي الكائن في هذا البحر بدلالة المعنى وإن لم يجر له ذكر (يده) وهي أقرب شيء إليه (لم يكد) أي الكائن فيه (يراها) أي يقرب من ذلك فضلا عن أن يكون ، لأن الله قد ستر عنه كل نور بهذه الظلمات المتكاثفة ، وهو مثال لعمله ، وأنه عدم لما تقدم من أن العدم كله ظلمة ، فلا عمل له يكون شيئا ولا يقرب من ذلك لأنه لا أهلية له بوجه ". (١)

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات و السور – البقاعي ج ٥ ص ٤٧٧ .

وهذا كلام جيد ، إلا أن قول الإمام البقاعي – رحمه الله تعالى – بأن " أو " هنا للتخيير او للتقسيم أو التنويع ... الأقرب منه أن تكون بمعنى الواو العاطفة التي هي أنسب لمقام الترهيب من الكفر والكافرين وأعمالهم .

وهذه صورة تشبيهية محسوسة ، مركبة من عناصر متداخلة في بعضها البعض ، تفيد معنى مركبا كليا ، وإن كان بعض المفسرين قد أشار إلى بعض الإشارات المفردة ، فما هي إلا إيحاءات ، يشع بها المعنى ، والصورة هيئة كلية متكاملة الأركان والعناصر، ولوحة فنية متناسقة الألوان ، وقيثارة موسيقية متناغمة الألحان، وسبحان من قرآنه أعجز الإنس و الجان .

في بيان علم الله تعالى بالغيب :

وفي بيان علم الله تعالى وحده بالغيب دون سواه نرى لفظة " ظلمات " تدخل في صياغة العبارة المحكمة التي تؤدي هذه الغاية ، وذلك بمجيئها معرفة بالإضافة التي تقيدها وتحدد الغاية التي سيقت لبيانها تحديدا بالغ الدقة في الإعجاز القرآني القاهر الباهر ، وذلك في قوله سبحانه : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (سورة الأنعام الآية : ٥٩)

نلحظ أن الآية الكريمة بدأت بوضع الأساس الأول الذي بني عليه كل ما جاء بعده ، حيث قصر مفاتح الغيب على كونها عنده هو وحده سبحانه دون أحد سواه ، وذلك بطريق تقديم ما حقه التأخير في قوله تعالى : "وعنده مفاتح الغيب" ثم قصر علم هذه المفاتح على نفسه سبحانه بطريق آخر ، هو النفي والاستثناء فقال : " لا يعلمها إلا هو " ، وفوق ما أفاده طريقا القصر من التأكيد والحصر ... فإننا نلحظ انه أسلوب تصعيدي ، بدأ بطريق التقديم – وهو

من الأدوات التي تفيد القصر - ، ثم ثنى بأسلوب النفي والاستثناء ، وهو ناصية باب القصر ، ونصٌّ فيه . وليعلم كل مهوِّش ، وليعلم كل سامع للمهوِّش أن هؤلاء الذين يدَّعون علم الغيب إن هم إلا كاذبون .

وبعد أن وضع الأساس وأكده بطريق الإجمال أراد أن يفصل ما أجمل ليزيد الأمر في العقول رسوخا وثبوتا... فقال سبحانه : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ فنرى كيف أنه عطف الجزئيات على الكليات ليفصل ما سبق إجماله لتتشربه العقول ، و تأنس له القلوب .

ومن هذه الجزئيات التي قصر البيان القرآني المعجز علمها على الله تعالى " حبة في ظلمات الأرض" ، والحبة من الصغر بمكان ، وليس الصغر وحده وإنما علم تكوينها ، وخصائص بنائها ، وطريق رعايتها ، وتفاعل جزيئاتها مع بعضها البعض ، وتفاعلها مع التربة التي دفنت فيها ، والماء الذي ينزل عليها ، والطقس الملائم أو غير الملائم لها .... كل هذه علوم لا يدرك البشر منها إلا ظواهرها ، أما حقائقها فالعلم فيها عند الله وحده .

ولننظر إلى لفظة " ظلمات " فلم نجد تنكيرها الذي وجدناه في الصور السابقة لأن السياق هنا يتطلب تخصيص " ظلمات " بعينها ، وهي ظلمات الأرض التي تخفي ما بها إخفاء تاما ، لكنها جاءت جمعا لتوحي بأن تلك الظلمات متنوعة بتنوع الأرض التي دفنت الحبة فيها ، كما تدل علي تنوع الطبقات التي توضع فوقها ، كما أن الجمع هنا دال أيضا على شدة هذه الظلمات وأنها لا تنفذ شيئا .

قلت إنها لم تأتنا منكرة ، وإنما عرفت بإضافتها إلى الأرض ليذكرنا بأصل خلقتنا من تراب هذه الأرض ، وأن هذه الأرض التي منها خلقنا يخرج لنا

منها طعامنا ، ثم إليها يعيدنا ، وأن الأرض قريبة إلى أيدينا وأن خالقها الذي يعلم الحبة فيها هو الذي يعلم أقوالنا وأفعالنا و يحصيها علينا ويحاسبنا بها ... نسأل الله تعالى العفو والمغفرة .

ولفظة " ظلمات " هنا استعملت فيما وضعت له في اصطلاح التخاطب، وكما أنها لم تكن داخلة في بناء صورة بيانية كسابقاتها ، إلا أنها ألقت بإيحاءاتها وظلالها التي بينت بيانا كاملا بوقوعها مجرورة بحرف الجر " في " ومضافة إلى الأرض ، وهي بتركيبها هذا واقعة لتلك الحبة التي جعلت ظلمات الأرض ظرفا ومحتوى لها ليبرز مدى دقة المراقبة الإلهية التي أحاطت بكل شيء علما ، وأحصت كل شيء عددا .

ثم نرى خاتمة الآية التي تجمل ما سبق تفصيله بدقة فائقة ، وذلك في قوله سبحانه : " ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين " فتلخص ما سبق بيانه في كلمات قليلات تجمع المتقابلات في طباق رائع يشمل كل ما في الحياة، إما رطبا أو يابسا ، وفيه نتيجة لما سبق عرضه ، مع زيادة التسجيل لما يعلمه المولى سبحانه من غيب وغير غيب مدونا " في كتاب مبين " .

وفي ذلك يقول صاحب مراح لبيد : " فإذا سمع الإنسان أن الحبة الصغيرة الملقاة في مواضع متسعة يبقى أكبر الأجسام مخفيا فيها وأن الماء والنابت والحي وخلافها لا تخرج عن علم الله تعالى، صارت هذه الأمثلة منبهة على معنى قوله تعالى: ﴿ وَعِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إلا هو ﴾ (١)

---

(١) مراح لبيد ح ١ ص ٣٢٣.

ظلمات البر و البحر :

وردت لفظة " ظلمات " مضافة إلى " البر " والمعطوف عليه "البحر" في ثلاثة مواضع في القرآن الكريم :

أولها : في قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُون ﴾ (سورة الأنعام الآية ٦٣ :٦٤)

وظلمات البر والبحر هنا ظلمات حقيقية تخشاها الناس خشية كبيرة لما فيها من مجهول مخيف وعرضة للهلاك بسبب عدم الاستقامة على الجادة مما يوقع في الهلكة .

وقد صدرت العبارة باستفهام تقريري يوقظ فكر الغافلين عن مدى رعاية الله تعالى لهم بأنه هو الذي ينجيهم من هذه الظلمات ، التي تعم البر والبحر فتغطي جميع الأرجاء من حولهم مما أفاده الطباق البديع بين كلمتي " البر " و " البحر " .

وهذه الظلمات التي عمت الأرجاء برًا وبحرًا تملأ القلوب خوفًا ، والنفوس رعبًا مما يجعلهم لا يلجؤون والحالة هذه إلا إلى الله وحده " تدعونه تضرعا وخفية " .

وهنا نرى أن لفظة " ظلمات " بما فيها من إيحاءات الخوف والرعب ... قد أضيفت إلى البر والبحر اللذين لا يستغني عنهما الخلق في جميع أمور حياتهم فيدفعهم هذا الإيحاء إلى مراجعة أنفسهم ربما يفيئون الى عبادة ربهم الذي ينجيهم من تلك الظلمات الشاملة للبر و البحر ، يقول البقاعي رحمه الله تعالى : " لما تعرف بأفعاله وشؤونه حتى اتضحت وحدانيته وثبتت فردانيته ،

ذكرهم أحوالهم في إقرار توحيده وقت الشدائد والرجوع عن ذلك عند الإنجاء منها ، فكانوا كمن طلب من شخص شيئاً وأكد له الميثاق على الشكر ، فلما أحسن إليه بإعطائه سؤله نقض عهده وبالغ في الكفر ، وذلك عندهم في غاية من القبائح لا توصف فقال : { قل } أي لهؤلاء الذين يدعون محاسن الأعمال { من ينجيكم } أي كثيراً وعظيماً { من ظلمات البر والبحر } أي حيث لا هداية لكم بنجم ولا جبل ولا غيرهما ، أو عبر بالظلمات عن الكروب التي بلغت شدتها إلى أن صاحبها يكون كأنه في أشد ظلام ، فهو بحيث إنه لا يهتدي فيها إلى وجه حيلة نوع وسيلة { تدعونه } أي على وجه الإخلاص له والتوحيد والإعراض عن كل شرك وشريك لزوال الحظوظ عند إحاطة الرعب واستيلائه على مجامع القلب ، فلا يبقى إلا الفطرة السليمة؛ قال الإمام عبد الحق الإشبيلي في كتابه الواعي : { تضرعاً } أي مظهرين الضراعة ، وهي شدة الفقر ، وحقيقته الخشوع { و } قوله : {خفية} أي تخفون في أنفسكم مثل ما تظهرون؛ قال شمر : يقال : ضرع له وهو ضارع بيّن الضراعة ، وهؤلاء قوم ضرع ، أي أذلاء ، وهم ضرعة أي متضرعون ، والتضرع إلى الله : التخشع إليه والتذلل ، " (١)

هذا وقد تدل لفظة " ظلمات " دلالة مجازية لو اننا اعتبرنا قول البقاعي أنها بمعني (الكروب) فتكون بذلك من باب الاستعارة التصريحية الأصلية ، ولا مانع من أن تكون دلالتها شاملة لحقيقتها ومجازها و الله غالب على أمره.

والموضع الثاني : في القرآن الكريم الذي أضيفت فيه كلمة " ظلمات " إلى البر والبحر كان في معرض التذكير بنعم الله تعالى على خلقه حيث سخر

---

(١) نظم الدرر للبقاعي ج ٣ ص ٦٧ .

لهم النجوم علامات يهتدون بها ويبددون " ظلمات البر و البحر "، و ذلك في قوله سبحانه : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ . (الأنعام : الآية ٩٧)

وهذا السياق و سابقه متقاربان ، فالأول تقرير لهم بنعمته عليهم ، والثاني توكيد بحصول تلك النعمة لهم ، و جعل ذلك من الآيات التي فصلها لهم ليزدادوا بها علما ،

وإذا كان التعبير في السياق السابق كان بأسلوب الاستفهام التقريري " من ينجيكم ،..." فإن التعبير هنا جاء بصيغة الخبر المؤكد بالقصر الذي تصدر العبارة " و هو الذي جعل لكم النجوم .." و طريق القصر هو تعريف طرفي الجملة ، يقول الطاهر بن عاشور ـ رحمه الله تعالى ـ : " والمقصود الأوّل من هذا الخبر الاستدلال على وحدانيّة الله تعالى بالإلهيّة ، فلذلك صيغ بصيغة القصر بطريق تعريف المسند والمسند إليه ، لأنّ كون خلق النّجوم من الله وكونها ممّا يهتدَى بها لا ينكره المخاطبون ولكنّهم لم يَجْرُوا على ما يقتضيه من إفراده بالعبادة ."[١].

وكلمة " ظلمات " هنا من الممكن إن تدل على معناها الحقيقي وكذلك من الممكن أن يكون المراد بها المخاوف والكروب والشدائد والكلمة من الكلمات الغنية بالعطاءات المعنوية .

والاضافة إلى البر والبحر قيدت الظلمات بكونها ظلمات خاصة بالبر والبحر .

(١) التحرير و التنوير ج ٥ ص٤٧ .

أما الطباق بين البر والبحر فقد أكسب المعنى بيانا ومزيد وضوح لأن الضد يظهر حسنه الضد ، كما أفاد العموم والشمول من خلال استيعابه لجمع ما يحيا به البشر وهو البر والبحر .

والموضع الثالث : في القرآن الكريم الذي وردت فية كلمة " ظلمات " مضافة إلى البر وما عطف عليه كان في قوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (سورة النمل الآية : ٦٣).

ومع تقارب الصياغات تتقارب السياقات ، فهناك خوف ، ونجاة من الله تعالى من هذا الخوف بالاهتداء في تلك الظلمات ، مما هو مشابه لما عليه سياق هذه الآية التي بين أيدينا ، حيث بدأت بأسلوب استفهام تقريري " أمن يهديكم .." ، مقررا لهم بنعمة هدايته لهم سبحانه مقرونة بنعم أخرى أنعمها الله تعالى عليهم ، لتتم عليهم نعمة الأمان ونعمة الطعام والشراب التي هي نتيجة لإرساله سبحانه وتعالى للرياح تبشر بالمطر الذي تتوقف عليه حياتهم ، وحياة كل شيء .

وكلمة ظلمات هنا ذات دلالة عامة يقول ابن عطية :" و « الظلمات » عام لظلمة الليل التي هي الحقيقة في اللغة ولظلمة الجهل والضلال والخوف التي هي مجازات وتشبيهات وهذا كقول الشاعر :

« تجلت عمايات الرجال عن الصبا » ∴ وكما تقول أظلم الأمر وأنار [(١)]

وقد وردت كلمة (ظلمات) معرفة بـ (ال) في مقامات تتطلب ذكر عمومية الجنس ، أو النص على ظلمات معهودة معروفة لدى المخاطبين ، كما

(١) (تفسير ابن عطية ج٥ ص ١٧٣).

أنها وردت مع ذلك مجرورة بحرف الجر (في) لتفيد معنى الاستحكام والتمكن ممن بداخلها ، وكأنها ظرف ينطبق عليهم بداخلها لا يجدون منها فكاكا ، وذلك في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم .

الموضع الأول : في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (سورة الأنعام : ألاية ٣٩) .

الأقرب أن كلمة " الظلمات " هنا مستعملة في غير ما وضعت له للدلالة على الغي و الضلال ، يقول الزمخشري رحمه الله تعالى : " والمكذبون { صُمٌّ } لا يسمعون كلام المنبه { وَبُكْمٌ } لا ينطقون بالحق ، خابطون في ظلمات الكفر ، فهم غافلون عن تأمل ذلك والتفكر فيه ، ثم قال إيذاناً بأنهم من أهل الطبع { مَن يَشَأِ الله يُضْلِلْهُ } أي يخذله ويخله وضلاله لم يلطف به ، "(١)

فقول الزمخشري " خابطون في الكفر " يقرب كون لفظة "الظلمات " مستعملة في غير ما وضعت له ، حيث فسره الزمخشري بالكفر.

هذا ومن الممكن أن تكون مستعملة فيما وضعت له وداخلة في بناء صورة بيانية حيث شبه حال الذين كذبوا بآيات الله تعالى بحال الأصم الأبكم الخابط في ظلمات الليل .

والموضع الثاني من مواضع مجيء لفظة " ظلمات " معرفة بـ (ال) ومجرورة بالحرف (في) و ذلك في سياق المقارنة بين أهل الإيمان ، وما أنعم الله به عليهم من الهداية، وأهل الكفر و العناد ، وما أوقعوا أنفسهم فيه من الضلالات ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا

(١) (الكشاف ج ٢ ص ١١٤).

يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (الأنعام الآية : ١٢٢) .

وهنا يتجلى الفارق الكبير بين من مثله في النور يبصر بوضوح كل شيء فيهتدي إلى طريقه المستقيم ، ومن مثله في الظلمات لا يرى شيئا فيتخبط في كل شيء .

واحتمالية كون (ظلمات) على حقيقتها ، أو أنها استعارة احتمال قائم كما هو الحال في الموضع السابق ، وقوله سبحانه " ليس بخارج منها " يحتمل الأمرين أيضا يقول الألوسي : "تفسير المأثور عن ابن عباس رضي الله عنهما أن المراد بالميت الكافر الضال وبالإحياء الهداية وبالنور القرآن وبالظلمات الكفر والضلالة ، " [١]

فالألوسي اعتبر أن كلا من (ميتا ... أحييناه ... نورا " الظلمات) من قبيل الاستعارات، ولو أننا اعتبرنا أن لفظة " ظلمات " داخلة بمعناها الحقيقي في بناء الصورة البيانية حيث شبه حال الكافرين بمن مثله في الظلمات الحقيقية ، ليس بخارج منها لجاز ذلك .

والموضع الثالث : من مواضع ذكر (الظلمات) معرفة بـ (ال) ومجرورة بالحرف (في) وذلك في سياق قصة نبي الله يونس على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، وقد جاءت مستعملة استعمالا حقيقيا حيث دلت على ظلمات البحر وظلمات الليل وظلمات بطن الحوت ... في قوله تعالى : ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (سورة يونس الآية ٨٧) .

---

١ - (روح البيان للألوسي ج ٦ س ١٢)

وفـي ذلـك يقـول الألوسـي رحمـه الله تعـالى معتبرا أنـها وإن كانـت ظلمـة واحدة فهي لشدتها كأنـها ظلمات تراكم بعضها فوق بعض : " فِى الظلمـات } أي فـي الظلمـة الشـديدة المتكاثفـة فـي بطـن الحـوت جعلـت الظلمـة لشـدتها كأنـهـا ظلمـات" . [١]

فـ (الظلمـات) جـاءت معرفـة بـ (ال) و مجـرورة بحـرف الجـر (فـي) المفيد للظرفيـة إذ إن الظلمـات هنـا فـي معناهـا الحقيقـي ، يقـول ابـن عاشـور : " و (الظلمات) جمع ظلمة ، والمراد ظلمة الليـل ، وظلمـة قعر البحـر ، وظلمـة بطن الحوت ، وقيل (الظلمات) مبالغة في شدة الظلمة ". [٢]

وجمع (الظلمات) هو على ما فصله ابن عاشـور ، أو أنـه مبالغة فـي شدة الظلمة ، ويلحظ أن لفظة (الظلمات) لم تأت مفردة في القرآن الكريم على الإطلاق .

(١) روح المعاني ج١٢ ص ٤٥٣ .

(٢) التحرير و التنوير – الطاهر بن عاشور ج ٩ ص ١٩٩ .

المبحث الثاني

التعبير بـ " النور " منفردا في القرآن الكريم

ورد التعبير بـ " النور " مفردا في القرآن الكريم بطريق الحقيقة وطريق المجاز .

ففي سورة الأعراف يأتي ذكر النور بمعنى الوحي ، لما فيه من الهدى والرشاد ، يقول سبحانه :

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (سورة الأعراف الآية : ١٥٧) .

فالذي أنزل مع رسول الله ـ صلى الله عليه و سلم ـ هو القرآن الكريم ، وهو مشبه بالنور لما فيه من الهداية إلى الصراط المستقيم ، والعصمة من الزلل ومن الوقوع في المهالك ، يقول الزمخشري رحمه الله تعالى : " و { النور } القرآن . فإن قلت : ما معنى قوله { أُنزِلَ مَعَهُ } وإنما أنزل مع جبريل؟ قلت : معناه أنزل مع نبوّته ؛ لأنّ استنباءه كان مصحوباً بالقرآن مشفوعاً به . ويجوز أن يعلق باتبعوا . أي : واتبعوا القرآن المنزل مع اتباع النبي والعمل بسنته ويما أمر به ونهي عنه ، أو واتبعوا القرآن كما اتبعه مصاحبين له في اتباعه . (الكشاف ج ٢ ص ٢٩٧).

فإطلاق النور على القرآن الكريم من باب الاستعارة التصريحية الأصلية .

وعن القرآن الكريم ، أو رسول رب العالمين ـ صلى الله عليه وسلم ـ جاء التعبير بالنور في قوله تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (سورة المائدة الآيات : ١٥ : ١٧) .

وقد سبق الحديث عن قوله سبحانه " ويخرجهم من الظلمات إلى النور" أما محل الشاهد هنا ففي قوله تعالى : " قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين "، أي أن قدر ما جاءكم عظيم لا يحيط به علم أحد منكم ، يقول وهب الزحيلي في تفسيره الوسيط : " ثم وصف الله تعالى ما جاء به من عنده بأن محمدا الرسول أو القرآن نور يضيء درب الحق، وأن القرآن كتاب واضح يهدي به الله من أقبل عليه، واتّبع الدين الذي يرضى به الله تعالى ، يهدي إلى طريق النّجاة والسّلامة ومناهج الاستقامة" . [١]

فـ " نور " سواء أكان المراد بها القرآن الكريم ، أو النبي الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ فالتعبير بها تعبير مجازي ، فهي استعارة على كلا الاحتمالين .

(١) التفسير الوسيط للزحيلي ج١ ص ٤٤٣.

وفي إضافة النور إلى الله تعالى تعظيم له وإجلال كبير، وذلك في قوله تعالى :

﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ (التوبة : ألاية ٣٢) .

إن الذين يريدون إطفاء نور الله تعالى يحاولون محالا ، لآن نور الله المراد به الإسلام ، وهو دين الله تعالى ، ولا يمكن التصدي له من مخلوق كائنا من كان ،

ونور الله هنا استعارة رشحها قوله : "أ ن يطفئوا ، يقول صاحب زاد المسير: " { يريدون أن يطفئوا نور الله } قال ابن عباس : يخمدوا دين الله بتكذيبهم ، يعني : أنهم يكذبون به ويُعرضون عنه يريدون إبطاله بذلك . وقال الحسن وقتادة : نور الله : القرآن والإسلام ". [١]

وسواء أكان المراد بالنور الدين أو القرآن فإن الكلمة استعارة، إذا اعتبرنا أن نور الله هنا المراد بها دين الله، أو القرآن ... فهي استعارة تصريحية أصلية ، وكلام الله تعالى غزير العطاء .

وقريب من ذلك أي مجيء النور مضافا الى الله تعالى قوله : ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ (سورة الصف : الآية ٨) .

ومما يلحظ أن في هذه الآية وسابقتها قد أضيف النور إلى صريح لفظ الجلالة أولا ، ثم إلى الضمير العائد إليه ثانيا ، وفي ذلك تأكيد استحالة قدرتهم على إطفاء هذا النور ، لأنه مضاف إلى الله مرتين ، بما لا يدع مجالا للشك

---

(١) زاد المسير ج ٢ ص ١٦٩.

في ذلك ، يقول الزمخشري : " وإطفاء نور الله بأفواههم : تهكم بهم في إرادتهم إبطال الإسلام بقولهم في القرآن : هذا سحر ، مثلت حالهم بحال من ينفخ في نور الشمس بفيه ليطفئه «والله متمّ نوره» أي متمّ الحق ومبلغه غايته ". (١)

وفي ضرب المثل لنوره سبحانه و تعالى نرى ذكر النور خمس مرات في قوله تعالى :

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (سورة النور الآية : ٣٥) .

نلحظ أن الله تعالى أخبر عن نفسه بـ " نور السموات والأرض " ، ثم أردف مثلا يبين تفاصيل وأوصاف هذا النور فقال : " مثل نوره كمشكاة ....."

وإضافة " نور " إلى " السماوات والأرض " فيه بيان مقدار وعظم هذا النور الذي أشرقت به السموات والأرض أي اهتدت ، أو اهتدى به أهل السموات والأرض في جميع أمور حياتهم ، كما أورد ذلك الزمخشري رحمه الله. (٢)

واستعمال " نور " هنا في مواضعها الخمسة في الآية الكريمة من المحتمل أن يكون على سبيل الحقيقة ، وأن المراد هو النور الذي تبصر به

---

(١) الكشاف ج٧ ص ٥٢ .

(٢) ينظر : الكشاف ج ٣ ص ٢٤١ .

الأشياء ، وأنه آية من آيات الله ، ونعمة أفاض الله بها على عباده كنعمة الخلق والإحياء والرزق و الحفظ ، لكن الاحتمال الثاني هو أن يكون المراد المعاني المجازية للكلمة أي الهداية والإرشاد والنجاة من الكفر والضلال .

وقد أسهمت اللفظة في بناء المثل الموضح لمراد الله تعالى فقال : " مثل نوره " فأضاف النور هنا إلى نفسه سبحانه ، ليقرب إلى العقول مراده من معنى هذا النور بما تطيقه العقول من فهم وتصور .

ثم نرى أدوات تقوية النور ومصادره من مصباح وزجاجة وكوكب دري ، ومنبع التغذية لهذا النور وأنه من شجرة مباركة زيتونة معتدلة البيئة والمناخ ، فكأن زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ، والمحصلة النهائية لكل هذا هي " نور على نور ".

وهذا كله مثل يراد به الهدى والنجاة .

فالمثل هذا صورة بيانية توضح القدر العظيم لنور الله تعالى ، المراد به الإيمان والهدى ، ولهذا يختم البيان القرآني قصة هذا المثل بقوله تعالى : " يهدي الله لنوره من يشاء ، ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم"

فبعيد أن يكون المراد المعنى الحقيقي للنور هنا ؛ لأن الله تعالى يهدي لدينه والإيمان به من يشاء من عباده .، يقول الزمخشري مبينا أوجه معاني هذه الآية : " نظير قوله : { الله نُورُ السماوات والأرض } مع قوله : { مَثَلُ نُورِهِ } ، و{ يَهْدِى الله لِنُورِهِ } : قولك : زيد كرم وجود ، ثم تقول : ينعش الناس بكرمه وجوده . والمعنى : ذو نور السموات . وصاحب نور السموات ، ونور السموات والأرض الحق ، شبهه بالنور في ظهوره وبيانه ، كقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الذين ءامَنُواْ يُخْرِجُهُم مّنَ الظلمات إِلَى النور ﴾ (البقرة : ٢٥٧) : أي من الباطل إلى الحق . وأضاف النور إلى السموات والأرض لأحد معنيين :

إما للدلالة على سعة إشراقه وفشوّ إضاءته حتى تضيء له السموات والأرض . وإما أن يراد أهل السموات والأرض وأنهم يستضيئون به { مَثَلُ نُورِهِ } أي صفة نوره العجيبة الشأن في الإضاءة { كَمِشْكَاةٍ } كصفة مشكاة وهي الكوّة في الجدار غير النافذة { فِيهَا مِصْبَاحٌ } سراج ضخم ثاقب { فِى زُجَاجَةٍ } أراد قنديلاً من زجاج شامي أزهر . شبهه في زهرته بأحد الدراري من الكواكب وهي المشاهير ، كالمشتري والزهرة والمرّيخ وسهيل ونحوها { يُوقَدُ } هذا المصباح {مِن شَجَرَةٍ} أي ابتدأ ثقوبه من شجرة الزيتون ، يعني : رويت ذبالته بزيتها { مباركة } كثيرة المنافع . أو : لأنها تنبت في الأرض التي بارك فيها للعالمين . وقيل : بارك فيها سبعون نبياً ، منهم إبراهيم عليه السلام . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : (٧٦١) " عليكمُ بهذِهِ الشجرةِ زيتُ الزيتونِ فتداوَوا بهِ ، فإنه مصحةٌ منَ الباسورِ" { لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ } أي منبتها الشام . وأجود الزيتون : زيتون الشام . وقيل : لا [في] مضحى ولا [في] مقنأة . ولكن الشمس والظل يتعاقبان عليها وذلك أجود لحملها وأصفى لدهنها . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(٧٦٢) " لا خيرَ في شجرةٍ في مقنأة ، ولا نباتٍ في مقنأةٍ ، ولا خيرَ فيهما في مضحَى " وقيل : ليست مما تطلع عليه الشمس وفي وقت شروقها أو غروبها فقط بل تصيبها بالغداة والعشي جميعاً ، فهي شرقية وغربية ، ثم وصف الزيت بالصفاء والوبيص وأنه لتلألئه { يَكَادُ } يضيء من غير نار { نُّورٌ على نُورٍ } أي هذا الذي شبهت به الحق نور متضاعف قد تناصر فيه المشكاة والزجاجة والمصباح والزيت ، حتى لم يبق مما يقوى النور ويزيده إشراقاً ويمدّه بإضاءة : بقية ، وذلك أن المصباح إذا كان في مكان متضايق كالمشكاة كان أضوأ له وأجمع لنوره ، بخلاف المكان الواسع فإنّ الضوء ينبث

فيه ، وينتشر ، والقنديل أعون شيء على زيادة الإنارة ، وكذلك الزيت وصفاؤه { يَهْدِى الله } لهذا النور الثاقب { مَن يَشَآء } من عباده ، أي : يوفق لإصابة الحق من نظر وتدبر بعين عقله والإنصاف من نفسه ، ولم يذهب عن الجادة الموصلة إليه يميناً وشمالاً . ومن لم يتدبر فهو كالأعمى الذي سواء عليه جنح الليل الدامس وضحوة النهار الشامس . وعن عليّ رضي الله عنه : «الله نور السموات والأرض» أي نشر فيها الحق وبثه فأضاءت بنوره ، أو نور قلوب أهلها به ، وعن أبيّ بن كعب رضي الله عنه: مثل نور من آمن به . وقرىء : «زجاجة الزجاجة» بالفتح والكسر : ودرّيّ: منسوب إلى الدرّ أي : أبيض متلألئ . ودرّىء : بوزن سكيت : يدرأ الظلام بضوئه " (الكشاف ج ٤ ص ٤٠٧)

وتفسير الزمخشري النور بمعنى الحق قاطع في أنه أي النور مستعمل في غير ما وضع له، أما في قوله تعالى " نور على نور " فقد يكون مرادا على حقيقته ؛ لأنه داخل في بناء صورة تشبيهية تراها الأبصار ، ويكون النور المجازي قد شبه بالنور الحقيقي ليتوافق مع القدرات الإدراكية للمخاطبين .

وفي قوله تعالى : " يهدي الله لنوره من يشاء " يفسره صاحب الكشاف بالحق ليكون النور قد استعمل في الآية على وجه الحقيقة كما استعمل استعمالا مجازيا ، وسبحان من أعجز بيانه العالمين ..

وفي قوله تعالى : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ (٤٠) (سورة النور)

وقد سبقت دراسة هذه الآية في مبحث الظلمات منفردة ، و لكن المراد هنا خاتمة الآية ، أي قوله تعالى : " وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا " وإذا كان هذا

التعبير يحتمل كونه تعبيرا حقيقيا و تعبيرا مجازيا فهو إلى أن يكون تعبيرا مجازيا أقرب ، يقول الرازي رحمه الله تعالى في تفسيره للآية : "وَالْآيَةُ الثَّانِيَةُ فِي ذِكْرِ عَقَائِدِهِمْ فَإِنَّهَا تشبه الظلمات كما قال: يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ [البقرة: ٢٥٧] أَيْ مِنَ الْكُفْرِ إِلَى الْإِيمَانِ يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى:
وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ [النور: ٤٠]"[1]

ويكون المراد إذن و من لم يهده الله فما له من هاد ..

ومن التعبير بالاستعارة التصريحية الأصلية في لفظ " نور " ما ورد في قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (سورة الزمر الآية ٢٢)

أي على هدى من ربه ، يقول ابن عطية رحمه الله تعالى : ﴿ أفمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ فَهُوَ عَلى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ *اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللَّهِ ذلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ﴾ (سورة الزمر الآية : ٢٢ ، ٢٣).

روي أن هذه الآية: أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ آية نزلت في علي وحمزة، وأبي لهب وابنه هما اللذان كانا من القاسية قلوبهم، وفي الكلام محذوف يدل الظاهر عليه، تقديره: أفمن شرح الله صدره كالقاسي القلب

(١) مفاتيح الغيب ج ٢٤ ص ٤٠٠.

المعرض عن أمر الله ، وشرح الصدر: استعارة لتحصيله للنظر الجيد والإيمان بالله."[1]

فنص على أن شرح الصدر استعارة ، وفهم من مضمون كلامه ان كلمة " نور " هي استعارة أيضا .

ومن إضافة لفظة (نور) الى لفظ الجلالة مرة ، وإلى ضميره مرة أخرى قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (سورة الصف الآية : ٨)

وواضح أن النور هنا نور مجازي المراد به دين الله تبارك وتعالى ، يقول الزمخشري رحمه الله تعالى : " وإطفاء نور الله بأفواههم : تهكم بهم في إرادتهم إبطال الإسلام بقولهم في القرآن : هذا سحر ، مثلت حالهم بحال من ينفخ في نور الشمس بفيه ليطفئه «والله متمّ نوره» أي متمّ الحق ومبلغه غايته "[2] جاعلا الاستعارة التصريحية التبعية في " ليطفئوا " بمعنى (ليبطلوا)، وواضح أن في كلمة " نور " في الموضعين من باب الاستعارة التصريحية الأصلية ، كما أن إضافة " نور " إلى لفظ الجلالة أولا ، ثم إلى ضميره ثانيا فيه من تعظيم دين الله تعالى القدر العظيم ، وإضفاء الهيبة والرهبة إلى هذا الدين العظيم ، كما أن فيه التصريح بامتلاك الله تعالى لهذا الدين ، وأنه تعالى الحامي له والمدافع عنه .

ومن إضافة لفظة " نور " إلى ضمير جماعة الغائبين ، ثم إلى ضمير جماعة المتكلمين قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً

(١) المحرر الوجيز – تفسير ابن عطية ج ٤ ص ٥٢٧

(٢) تفسير الكشاف ج ٧ ص ٥٢

نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير ﴾ (سورة التحريم الآية ٨)

نرى أن النور هنا ذكر مرتين :

الأولى : في سياق حديث المولى سبحانه عن الصالحين أهل النور – جعلنا الله منهم – فأضاف النور إليهم فقال : " يسعى نورهم بين أيديهم " فجعله نورا لهم بسبب إيمانهم ، وأعمالهم الصالحة ، فأهداه لهم ، وجعله نورهم .

وهل هو نور على سبيل الحقيقة ؟ أم أنه هدى إلى الجنة ؟ يقول الشوكاني رحمه الله تعالى : " وهذا دعاء المؤمنين حين أطفأ الله نور المنافقين كما تقدّم بيانه وتفصيله ."(١)

وهذا يشير إلى أنه نور على الحقيقة يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، ويكون معهم على الصراط .

وفي دعائهم يطلبون من الله تعالى أن يتم لهم نورهم :" ربنا أتمم لنا نورنا " يسألون الله تبارك وتعالى أن يديم لهم عطاءه بإتمام نورهم لهم حين ينطفئ نور المنافقين ، يقول الشوكاني رحمة الله عليه : "في قوله : { يوم لا يخزى الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى } الآية قال : ليس أحد من

---

(١) فتح القدير ج ٧ ص ٢٥٨

الموحدين إلاّ يعطى نوراً يوم القيامة ، فأما المنافق فيطفأ نوره ، والمؤمن مشفق مما رأى من إطفاء نور المنافق ، فهو يقول : { رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَانُورَنَا }[1]

وفي إضافة " نور " إلى ضمير جماعة المخاطبين يقول سبحانه : ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ (سورة الحديد الآية :١٣)

فإضافة النور إلى المؤمنين تشريف وتعظيم لهم بهذا النور الذي جعله الله تعالى مستمرا معهم حين انطغأ نور المنافقين ، يقول الألوسي رحمه الله تعالى: " {انظرونا } أي انتظرونا { نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ } نصب منه وذلك أن يلحقوا بهم فيستنيروا به .

وقيل : فيأخذوا شيئاً منه يكون معهم تخيلوا تأتّى ذلك فقالوه ، وأصل الاقتباس طلب القبس أي الجذوة من النار ، وجوز أن يكون المعنى انظروا إلينا نقتبس الخ لأنهم إذا نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم والنور بين أيديهم فيستضيئون به "[2]

ففي قوله يستضيئون به دليل على أنه يرى أن كلمة نور في معناها الحقيقي .

(١) فتح القدير ج ٧ ص ٢٥٨ .

٢ – روح المعاني ج ٢٠ ص ٣٢٠

المبحث الثالث

اقتران الظلمات بالنور في القرآن الكريم :

وأما اقتران الظلمات بالنور في القرآن الكريم فقد ورد في مواضع متعددة السياقات ، ولا سيما حين يذكر الشيء وضده ، لهذا رأينا طباق الإيجاب يظهر بجلاء في السياقات التي تحمل المعنى و ضده ، وللطباق قدرة بالغة في إظهار الأضداد بعضها البعض ؛ إذ إن الضد يظهر حسنه الضد كما يقولون

وقد استعملت في معانيها الحقيقية في بعض المواضع ، لكن الغالب عليها في بعض المواضع الأخرى الاستعمالات المجازية ، حيث استعار النور للهدى والظلمات للكفر والضلال ، وذلك في عدة مواضع : -

الموضع الأول :

في قوله سبحانه : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (سورة البقرة الآية ٢٥٧)

نلحظ أن هذه الآية الكريمة التي وردت في سورة البقرة التي سياق الحديث فيها عن المؤمنين والكافرين والمنافقين – هذه الآية أوجزت حال الطرفين الرئيسين (المؤمنين و الكافرين) ، فبدأت بذكر المؤمنين مبرزة مقامهم الكريم عند الله تعالى ، وأنهم في كنفه وتحت ولايته وعنايته سبحانه ، في الوقت الذي بينت فيه حال الكافرين الذين تركوا توحيد الله تعالى ، وتنكبوا الطريق إليه فتلقفهم الطاغوت بكفرهم ، فزادهم ضلالا وغيا ؛ إذ قد دخلوا في ولاية الطاغوت والطاغوت أنواع كثيرة ، لذا عبر عنهم بأسلوب الجمع " يخرجونهم من النور إلى الظلمات" بينما عبر في سياق هدايته سبحانه

للمؤمنين بالإفراد فقال سبحانه: " يخرجونهم من النور إلى الظلمات"؛ لأن الفاعل على هذا واحد هو الله تبارك وتعالى، ولأن النور بمعنى الإيمان لا يتعدد.

كما نلحظ أن (الظلمات) قد اقترنت بـ (النور) في هذه الآية الكريمة ، وذلك لبيان الحالين معا ، والحث على المقارنة بينهما ، وذلك في مرتين متتاليتين :-

الأولى : تقدمت (الظلمات) على (النور) في قوله سبحانه :" الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور" ، فواضح أن الله تبارك وتعالى أخبر عن إخراجه للذين آمنوا من الظلمات إلى النور ، وذلك بعد أن أخبر سبحانه عن ولايته للذين آمنوا ، وولاية الله تعالى للذين آمنوا تشمل معنى إخراجهم من الظلمات إلى النور ، ولكن في ذكر الخاص بعد العام مزيد تأكيد له بتسليط الضوء عليه حتى يكون موعظة للمؤمنين ليزيدوا في إيمانهم لما أن تحققوا من أن الله تعالى هو الذي يخرجهم من الظلمات إلى النور في شمول ولايته لهم سبحانه .

وهنا يتم كمال اتصال الجملة الثانية " يخرجهم من الظلمات إلى النور " بالجملة السابقة عليها مباشرة " الله ولي الذين آمنوا، إذ بين الجملتين كمال اتصال لمجيء الجملة الثانية بمثابة بدل البعض من الكل بالنسبة للجملة الأولى ، فالإخراج من الظلمات إلى النور متضمن في ولاية الله تعالى للذين آمنوا .

وواضح أن المراد بالظلمات والنور ههنا المعاني المجازية لهما ، فهما استعارتان تصريحيتان أصليتان ، إذ إن المراد بالظلمات : الكفر والضلالات ، وأن المراد بالنور : الإيمان .

يقول الزمخشري رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآية الكريمة :" يلطف بهم حتى يخرجهم بلطفه وتأييده من الكفر إلى الإيمان ، والذين كفرو : أي صمموا على الكفر أمرهم على عكس ذلك ، أو: الله ولي المؤمنين يخرجهم من الشُّبَه في الدين إن وقعت لهم بما يهديهم ويوفقهم إلى حلها ، حتى يخرجوا منها إلى نور اليقين ، والذين كفروا أولياؤهم الشياطين يخرجونهم من نور البينات التي تظهر لهم إلى ظلمات الشك والشبهة "(١)

وكلام الزمخشري هنا – في كلا احتماليه – واضح في أن الظلمات قد استعيرت استعارة تصريحية أصلية للدلالة على الضلالات أو الشبهات ، وأن النور استعير استعارة تصريحية أصلية للدلالة على الإيمان والهدى .

ويُلحظ أن العبارة الدالة على إخراج الذين آمنوا من ظلمات الشبهات إلى نور الإيمان والهدى قد صُدِّرت بلفظ الجلالة " الله " ، ليضفي الجلال والكمال والجمال ... تكريما لهؤلاء الذين آمنوا ، ثم ما تلا ذلك من التصريح بولايته سبحانه لهم " ولي الذين آمنوا ، " ليعزز" الله أمنهم ، ويبدد خوفهم ويثبت قلوبهم .

لكننا نرى على الجانب الآخر سياقا آخر يتلاءم مع الذين تولوا كبره ، وتجرأوا على الله تعالى ، فنرى أن العبارة قد صُدرت بما يسيئهم ، ويمهد للإخبار عن سوء عاقبتهم " والذين كفروا " أي عرفوا بالكفر ، وكان الكفر صفة ملازمة لهم لا يعرفون بغيرها ، وكفى بذلك مهانة لهم ، وهنا لم يجعل لهم وليا إلا الطاغوت " أولياؤهم الطاغوت " وذلك فيه القدر الكبير من إبراز الفارق الشاسع بين ولاية الله تعالى للذين آمنوا ، والتي صرح فيها بلفظ الجلالة مسندا

(١) (تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢٢٨)

إليه في أول العبارة" الله ولي الذين آمنوا " وولاية الطاغوت لهؤلاء ، ليبين مقام هؤلاء الذين آمنوا ، وأنهم بإيمانهم استحقوا أن يتولاهم ذو الجلال والإكرام ، وأكرم بها منزلة ، وأعظم بها مكانة.

أما هؤلاء أصحاب الشبهات والضلالات والكفر فقد بدأت العبارة بذكر ما يستحقون الإهانة عليه " والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت " وهذا تمهيد لذكر عاقبة أمرهم ، وأنها على العكس من عاقبة من سبق الحديث عنهم ، فهذا الطاغوت اسم جامع لكل ما هو مجاوز للحق والعدل والتوحيد ، وهم الشياطين ، "يخرجونهم من النور إلى الظلمات " أي يزيدونهم كفرا وضلالا وغيا ..

وما أبدعها من مقابلة هنا بين قوله سبحانه : " الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور" ، وقوله عز اسمه : " والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات" ، فهذه المقابلة أبرزت الحالين إبرازا دقيقا بيِّنا ، (والضد يظهر حِسنَه الضدُّ)

وفي جمع الظلمات دلالة على تنوع الضلالات والشبهات ، كما أنه في إفراد النور دلالة على أن طريق الحق والعدل والتوحيد طريق واحد .

وفي هذه الاستعارات الأربع إبراز للمعنوي في صورة المحسوس المشاهد الذائع أمره بين الخلائق ؛ إذ لا يوجد إنسان لا يعرف الظلمات المحسوسة التي لا يرى أحد فيها شيئا فيتخبط في طريقه ، ولا يستطيع السير ، وإن حاول السير – والحالة هذه – سيسير على غير صواب فيتخبط في كل شيء في طريقه ، كما لا يخفى على أحد هذا النور الذي يبصر فيه الرائي كل شيء ، ويتحقق من كل شيء ، ويتضح له به كل شيء ، فيتصور من خلال إدراكه ومعايشته للظلمات المحسوسة تلك الضلالات والشبهات الموقعة في المهالك كما توقع الظلمات في المعاطب ،

كما أنه لا يوجد إنسان لا يعرف النور الذي بدونه لا تُرى الأشياء التي تتوقف عليها حياة جميع الأحياء ، ويتبين الإنسان من خلال استعارة النور للهدى والإيمان بطريق سهل مشاهد تدركه عيونه ويهتدي به إلى كل ما يريد.

وفي قوله " يخرجهم " و " يخرجونهم " ترشيح للاستعارات ، وقد يكونان استعارتين تصريحيتين تبعيتين للدلالة على الانتقال من حال إلى حال .

وكونهما فعلين مضارعين يدلان بخصوصيتهما على التجدد والحدوث ، أي أنه إذا تجدد للمؤمنين شبهة تجددت لهم من الله هداية ، وإذا تجدد عزم من الضالين نحو الهدى تجدد لهم من شياطينهم إضلال وإغواء.

ثم نلحظ أن ختام الآية تعليق يحمل إخبارا عن مصير هؤلاء الصنف الثاني الذين اتبعوا الضلالات ، وخلدوا إلى الظلمات .. فنرى اسم الإشارة الذي يفيد استبعادهم عن رحمة ربهم " أولئك " ثم هم باقون في النار بقاء الصاحب مع صاحبه فهم " أصحاب النار " فهي كناية عن صفة الملازمة يؤكدها تصريح بخلودهم فيها " هم فيها خالدون " بالتعبير بالاسم الذي يفيد الثبوت والدوام نعوذ بالله تعالى من حال أهل النار .

الموضع الثاني :

وكما أن الله تعالى يخرج الذين آمنوا من الظلمات إلى النور ، فإن ما أنزله الله تعالى من الكتاب ، و ما أرسل من رسول من الأسباب التي يخرج بها الله تعالى الناس من الظلمات إلى النور ، يقول الله تعالى في سياق خطابه لأهل الكتاب : يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (سورة المائدة الآية : ١٥ ، ١٦)

السياق هنا في محاجة أهل الكتاب الذين يعرفون من خلال ما نزل إليهم من كتب ، وما أرسل إليهم من رسل صدق رسول الله صلى الله عليه و سلم ، وكانوا يخفونها : "قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير " "فهو يقرر عليهم مجيء الرسول ليبين حقيقة أمرهم ، وما تعمدوا إخفاءه من الكتاب ، ويعفو عن كثير .

ثم يؤكد عليهم بذكر الرسول صلى الله عليه و سلم ، ومعه الكتاب المبين " قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين " ، فبعطفه الكتاب المبين على النور يدل على أن المراد بالنور غير المراد بالكتاب المبين ، إذ إن العطف بالواو يقتضي المغايرة كما هو مشهور عند النحاة ، وقد فسر النور ههنا بأنه النبي محمد صلى الله عليه و سلم. (١)

وهذا ما لم يقل به صاحب الكشاف ، الذي فسر النور هنا بالقرآن الكريم ، معتبرا أن الأمر من باب عطف الصفات لموصوف واحد هو القرآن الكريم ، حيث قال :" { قَدْ جَاءكُمْ مّنَ الله نُورٌ وكتاب مُّبِينٌ } يريد القرآن ، لكشفه ظلمات الشرك والشك ، لإبانته ما كان خافياً عن الناس من الحق . أو لأنّه ظاهر الإعجاز. (٢)

وتفسير الزمخشري للنور بأنه القرآن الكريم هو أيضا من باب الاستعارة التصريحية الأصلية التي شبه فيها القرآن الكريم بالنور، بجامع الهدى في كل – وحذف المشبه وصرح بالمشبه به مكانه .

---

(١) (انظر نظم الدرر للبقاعي ج ٢ ص ٣٥٦)

(٢) (الكشاف للزمخشري ج ٢ ص ١١)

وكذلك القول في محل شاهدنا وهو قوله تعالى : " و يخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه " فهما استعارتان تصريحيتان أصليتان كما سبق ذكره في آية سورة البقرة .

أهل الكتاب يعلمون الحق إذن ، لكنهم يأخذهم الكبر والعناد أن جاءهم رسول منهم ، وأن أنزل إليهم كتاب ، فكان مناسبا لحالهم أن يؤكد لهم سياق الآية أن بهذين أي بالرسول والكتاب ، وليس بغيرهما يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم ، فمن اتبعه نجا ، ومن تركه هلك ، والله المستعان .

الموضع الثالث :

في سورة إبراهيم نجد هذه الاستعارة واضحة جلية في قوله جل شأنه:

﴿ الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ (سورة إبراهيم الآية ١)

فواضح أن المراد بالظلمات الكفر ، والمراد بالنور الإيمان ، لما في الاستعارة من قدرة على بيان وتجلية المراد بطريق محسوس واضح .

وقد صرح الامام الشوكاني رحمه الله تعالى بذلك في تفسيره للآية حيث قال : "ومعنى { لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ } لتخرجهم من ظلمات الكفر والجهل والضلالة إلى نور الإيمان والعلم والهداية . جعل الكفر بمنزلة الظلمات ، والإيمان بمنزلة النور على طريق الاستعارة ". [١]

---

(١) (فتح القدير للشوكاني ج ٤ ص ١٢٦).

وفي قوله سبحانه " لتخرج الناس " ترشيح للاستعارة ، حيث إنه يلائم المعنى الحقيقي للظلمات وكانه يخرجهم من مكان مظلم الى مكان نور على سبيل الحقيقة .

الموضع الرابع :

وفي سياق الحديث عن نبي الله موسى على نبينا وعليه أفضل الصلاة وأتم السلام ، مما ورد فيه الظلمات والنور على سبيل الاستعارة قوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ (سورة ابراهيم الاية ٥) .

ويلحظ أن هذه الآية جاءت مجاورة للآية السابقة من سورة إبراهيم، فقد أمر نبي الله موسى عليه السلام بما أمر به نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم بإخراج الناس من الظلمات إلى النور، ففي ذلك بيان أن شريعة الله واحدة ، وإن تعدد الأنبياء ، فهي ملة إبراهيم حنيفا ، وقد دارت على ذلك سورة إبراهيم التي نحن بصدد دراسة آيتيها .

الموضع الخامس :

في سورة الأحزاب نرى أن الإخراج من الظلمات إلى النور من رحمة الله تعالى إذ يقول سبحانه :

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ (سورة الأحزاب الآية ٤١ ، ٤٢)

نرى صلاة الله علينا بمعنى رحمته بنا التي بسببها يخرجنا من الشبهات التي عبر عنها بالظلمات بطريق الاستعارة – إلى النور الذي هو تعبير مجازي عن الهدى والرشاد ، وأن هذا يستوجب منا أن نذكر الله ذكرا كثيرا ، وأن نسبحه بكرة وأصيلا ، يقول ابن عطية : " ثم عدد تعالى على عباده نعمته في الصلاة عليهم ، وصلاة الله تعالى على العبد هي رحمته له ، وبركته لديه ، ونشره عليه الثناء الجميل ، وصلاة الملائكة هي دعاؤهم للمؤمنين ، وروت فرقة أن النبي صلى الله عليه وسلم قيل له : يا رسول الله كيف صلاة الله على عباده؟ قال « سبوح قدوس رحمتي سبقت غضبي » .

قال الفقيه الإمام القاضي : واختلف في تأويل هذا القول ، فقيل إن هذا كله من كلام الله ، وهي صلاته على عباده ، وقيل سبوح قدوس هو من كلام محمد ، تقدمت بين يدي نقطة باللفظ الذي هو صلاة الله ، وهو رحمتي سبقت غضبي ، وقدم عليه السلام هذا من حيث فهم من السائل أنه توهم في صلاة الله تعالى على عباده وجهاً لا يليق بالله عز وجل ، فقدم التنزيه لله والتعظيم بين يدي أخباره ، وقوله { ليخرجكم } أي : صلاته وصلاة ملائكته لكي يهديكم وينقذكم من الكفر إلى الإيمان " (١)

فابن عطية يعبر بالمعنى المراد من الاستعارة في قوله : " وينقذكم من الكفر إلى الإيمان "

كما أننا لا نغفل هذا المحسن البديعي الرائع ، الذي يصاحب كل استعارة ذكر فيها الظلمات والنور، فهما ضدان وهذا طباق إيجاب ، كل ضد منهما يظهر حسن ضده الآخر .

---

(١) تفسير ابن عطية ج ٥ ص ٣١٤.

الموضع السادس :

في سورة الحديد نرى تنزيل الكتاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم هدفه وغايته هو إخراجنا من الكفر إلى الإيمان ، معبرا عن ذلك بالاستعارة في (الظلمات والنور) ، حيث قال سبحانه :

﴿ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (الحديد الآية : ٩)

وفي التفسير للآيات يقوا أبو السعود : " {لِيُخْرِجَكُمْ} أي : الله تعالَى أو العبدُ بها {مّنَ الظلمات إِلَى النور} من ظلمات الكفرِ إلى نور الإيمانِ {وَإِنَّ الله بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ} حيثُ يهديكُم إلى سعادةِ الدارين بإرسالِ الرسولِ وتنزيلِ الآياتِ بعد نصبِ الحُججِ العقليةِ " .[١] فهي ظلمات الكفر بمعنى ضلالاته ، ونور الإيمان بمعنى هداه.

الموضع السابع :

وفي سورة الطلاق ، و بعد أمر الله تعالى أولي الألباب بتقواه ، إذ إنه قد أرسل إليهم رسولا يخرجهم من الضلال إلى الهدى ... يقول سبحانه :

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَاأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴾ (سورة الطلاق الآية: ١٠ ، ١١)

(١) تفسير أبي السعود ج ٨ ص ٢٠٥

فاستعارة الظلمات هنا دالة على الشبهات التي يقع فيها المؤمن ، والنور دال على قوة الإيمان بالله تعالى وزيادته ، لأن الإخراج من الظلمات إلى النور هنا خاص بالذين آمنوا وعملوا الصالحات " ، ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور " وبهذا تتعدد دلالات الظلمات والنور بتعدد السياقات التي وردت فيها .

استعمال الظلمات و النور في معانيهما الحقيقية

دلت الظلمات على حقيقة وضعها اللغوي في عدة مواضع في القرآن الكريم:

الموضع الأول :

في فاتحة سورة الأنعام يقول سبحانه :

" بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ (سورة الأنعام الآية:١).

فجاء التعبير بحقيقة الوضع اللغوي في هذه الآية الكريمة ، فبعد حمد الله ذاته العلية ذكر خلقه للسماوات والأرض ثم عطف على ذلك جعله الظلمات والنور والجملتان " خلق السموات والأرض " و" جعل الظلمات والنور " مشتركتان في المعنى في بناء صلة الموصول " الذي "وبينهما مناسبة قوية معنويا ، فواحد هو الذي خلق السموات والأرض ، وهو ذاته لا شريك له الذي جعل الظلمات والنور ، فالخلق والجعل من إله واحد ، وهذا جانب الاتفاق في الخبرية الدالة على إثبات الخلق والجعل لله وحده ، وثمة جانب اختلاف بين الجملتين ، فالعامل مختلف (خلق) ، و (جعل) إذ الخلق إنشاء من العدم ، أما الجعل فإنشاء شيء من شيء .

يقول الزمخشري . رحمه الله تعالى . في تفسيره لقول الله سبحانه: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ (الأنعام الآية ١) { جَعَلَ } يتعدّى إلى مفعول واحد إذا كان بمعنى أحدث وأنشأ ، كقوله : { وَجَعَلَ الظلمات والنور } وإلى مفعولين إذا كان بمعنى صيَّر ، كقوله : ﴿ وَجَعَلُواْ الملائكة الذين هُمْ عِبَادُ الرحمن إناثا ﴾ [الزخرف : الآية ١٩] والفرق بين الخلق والجعل : أن الخلق فيه معنى التقدير

وفي الجعل معنى التضمين ، كإنشاء شيء من شيء، أو تصيير شيء شيئاً ، أو نقله من مكان إلى مكان ، ومن ذلك ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [الأعراف الآية : ١٨٩] ، { وَجَعَلَ الظلمات والنور } ؛ لأن الظلمات من الأجرام المتكاثفة ، والنور من النار ﴿ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجا ﴾ [فاطر: ١١] ﴿ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً ﴾ [ص : ٥] . فإن قلت : لم أفرد النور؟ قلت : للقصد إلى الجنس ؛ كقوله تعالى : ﴿ والملك على أَرْجَائِهَا ﴾ [الحاقة : ١٧] أو لأن الظلمات كثيرة ، لأنه ما من جنس من أجناس الأجرام إلاّ وله ظلّ ، وظلّه هو الظلمة ، بخلاف النور فإنه من جنس واحد وهو النار"[١]

فالخلق شيء ، والجعل شيء آخر ، ثم إن الخلق معلق بالسموات والأرض ، الذين لا يجهلها ولا ينكرهما ذو بصر ، وأن الجعل متعلق بالظلمات والنور ، الذين لا يدفعهما دافع لشدة وضوحهما لكل صاحب عين تبصر .

وهذا الطباق البديع بين (السموات) و (الأرض)، وبين (الظلمات) و(النور) .. يضفي مزيد وضوح على المعنى المراد .

الظلمات والنور هنا مستعملان فيما وضعتا له ، والسياق يعين على ذلك ، فتقدم خلق السموات والأرض _ وهما محسان مشاهدان _ مستعملان فيما وضعتا له .. هذا يؤكد كون الظلمات والنور مستعملتان فيما وضعتا له في أصل اللغة .

---

(١) (الكشاف ج ٢ ص ٨٨)

والموضع الثاني :

من المواضع التي ورد فيها ذكر (الظلمات و النور) معا مستعملين فيما وضعتا له في أصل اللغة ما ورد في قوله تعالى :

﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (الرعد الآية ١٦)

الظلمات والنور هنا دخلتا في بنا صورة بيانية ، فكانتا جزءا مكملا مع (الأعمى والبصير) بعد الاستفهام الذي هو بمعنى النفي ، ليرد الفهم الضال عند المشركين ، الذين اتخذوا لهم من دون الله أولياء ، فضرب لهم المثل المحسوس الذي ينفي استواء الأعمى والبصير ، وعدم استواء الظلمات والنور ، ليقيم عليهم الحجة بما يرونه ويعلمون حقيقته ، ويشاهدونه في غالب أوقات حياتهم ، وهو عدم استواء الأعمى والبصير الحقيقيين ، وعدم استواء الظلمات والنور الحقيقيين.

أما البقاعي رحمه الله تعالى فإنه يجوّز احتمال أن يكونا حقيقتين ، أو أن يكونا مجازين حيث يقول : " " { قل هل يستوي } والاستواء : استمرار الشيء في جهة واحدة { الأعمى } في عينه أو في قلبه { والبصير * } كذلك { أم هل تستوي } بوجه من الوجوه { الظلمات والنور * } : هل أدتهم عقولهم إلى أن سووا بين هذه المتضادات الشديدة الظهور لغباوة أو عناد".[١]

(١) نظم الدرر للبقاعي ج ٤ ص ٣٣٩)

ففي قوله : " الأعمى في عينه أو في قلبه " يجوِّز احتمال أن يكون " الأعمى والبصير على حقيقتهما ، أو هما مجازان عن الضلال والهدى ، وعليه يقاس " الظلمات والنور " لكن الواضح أنهما حقيقتان دخلتا في بناء المثل .

الموضع الثالث :

من مواضع استعمال (الظلمات والنور) استعمالا حقيقيا قوله سبحانه : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّور ﴾ (فاطر الآية : ١٩ : ٢٠)

فنفى الاستواء أيضا عن " الأعمى والبصير " ، ثم عن الظلمات والنور، وواضح أن الاستعمالين ههنا حقيقية أيضا ، والمراد التشبيه الضمني للضلالات والهدى بالأعمى والبصير الحقيقيين ، كما شبههما أيضًا بالظلمات والنور الحقيقيين .

وبهذا يتحصل لنا أن جميع المواضع التي ذكر فيها (الإخراج من الظلمات إلى النور) كلها مجازية ، وأن ورود (الظلمات والنور مقترنين بدون ذكر الإخراج) كلها جاءت على سبيل الحقيقة .

ومما اجتمع فيه النور والظلمات في آية واحدة بلا اقتران قوله سبحانه :

﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (سورة الأنعام الآية : ١٢٢).

يقول أبو السعود : {أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا} وقرئ ميّتاً على الأصل {فأحييناه} تمثيلٌ مَسوقٌ لتنفير المسلمين عن طاعة المشركين إثر تحذيرهم عنها بالإشارة إلى أنهم مستضيئون بأنوار الوحي الإلهي والمشركون خابطون في ظلمات

الكفرِ والطغيانِ فكيف يُعقل إطاعتُهم لهم والهمزةُ للإنكارِ والنَّفيِ والواوُ لعطف الجملةِ الاسميةِ على مثلها الذي يدل عليه الكلامُ أي أأنتم مثلُهم ومَنْ كان ميتاً فأعطيناه الحياةَ وما يتبعُها منَ القوى المُدْرِكة والمحرِّكة {وَجَعَلْنَا لَهُ} مع ذلك من الخارج {نُوراً} عظيماً {يَمْشِي بِهِ} أي بسببه والجملةُ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال نشأَ من الكلامِ كأنَّه قيل فماذا يصنع بذلك النورِ فقيل يَمْشِي بِهِ {فِى الناس} أي فيم بينهم آمِناً من جهتهم أو صفةٌ له {كَمَن مَّثَلُهُ} أي صفتُه العجيبةُ وهو مبتدأُ وقولُه تعالى {فِى الظلمات} خبرُه "[1]

وواضح هنا أن النور تقدم على الظلمات مراعاة لسياق الآية التي تذكر أهل الهدى أولا ، وأهل الضلال ثانيا ، واضح أن النور هنا معناه الهدى ، وهي استعارة تصريحية أصلية ، وكذلك الأمر في الظلمات .

(١) تفسير أبي السعود ج ٣ ص ١٨٠

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد ،،

فإن التعبير بالظلمات والنور في القرآن الكريم قد تنوع بتنوع السياقات التي ورد فيها ، فقد ورد التعبير بالظلمات في مقامات الحديث عن أعمال أهل الكفر و النفاق .

وقد وردت جمعا إشارة إلى أن الضلالات والأباطيل كثيرة ومتعددة .

وردت كلمة : " ظلمات " نكرة ، ودلت على أمور كثيرة منها الاتساع والشمول والترهيب.

كما وردت معرفة بأداة التعريف (ال) ودلت على جنس الظلمات كما دلت على الظلمات التي يعهدها المخاطبون .

وردت معرفة بالإضافة ، ودلت على بيان حال ما أضيفت إليه (ظلمات البر والبحر) .

اطرد في سياق الحديث عن (ظلمات البر والبحر) أن تكون جميعها في مقام الامتنان على الخلق بالإنجاء والهداية.

وردت تارات على سبيل الحقيقة وتارات على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية .

لم ترد كلمة ظلمة بصيغة المفرد .

اجتمعت الظلمات والنور على عدة سياقات وكانت في معظمها في معناها المجازي .

كما أفاد الطباق في اجتماع الظلمات والنور الإبانة الجلية للمعاني التي وردت في سياقاتها لما في الطباق من مقدرة على إبراز الضد لحسن ضده الآخر ذكرت النور وحدها منكرة في مقامات متنوعة فدلت على بعض المعاني الحقيقية ، وبعض المعاني المجازية

كما وردت كلمة النور معرفة بـ (ال) ، وبالإضافة الى اسم الجلالة، والى ضمير جماعة المتكلمين ، وإلى ضمير جماعة المخاطبين ، وإلى ضمير جماعة الغائبين ، ولها في كل مقام دلالة تناسبه .

فهرس المصادر والمراجع

- القرآن الكريم جل من أنزله .
- التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» المؤلف : محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : ١٣٩٣هـ) الناشر : الدار التونسية للنشر – تونس ، سنة النشر: ١٩٨٤ هـ .
- تفسير أبي السعود إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، المؤلف: أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (المتوفى: ٩٨٢هـ) الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.
- تفسير البغوي معالم التنزيل في تفسير القرآن ،المؤلف : أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (المتوفى : ٥١٠هـ) المحقق : عبد الرزاق المهدي، الناشر : دار إحياء التراث العربي –بيروت، الطبعة : الأولى ، ١٤٢٠ هـ .
- تفسير القرآن العظيم ، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ) المحقق: محمد حسين شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٩ هـ .
- تفسير الكشاف " الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل" المؤلف : أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، دار النشر : دار إحياء التراث العربي – بيروت.

- التفسير الوسيط ، المؤلف : د وهبة بن مصطفى الزحيلي، الناشر: دار الفكر – دمشق، الطبعة : الأولى – ١٤٢٢ هـ.
- روح البيان المؤلف : إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي، دار النشر / دار إحياء التراث العربى .
- زاد المسير في علم التفسير ، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ابن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ) المحقق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤٢٢ هـ.
- لسان العرب لابن منظور المصري.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: ٥٤٢هـ) المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤٢٢ هـ .
- مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد، المؤلف: محمد بن عمر نووي الجاوي البنتني إقليما، التناري بلدا (المتوفى: ١٣١٦هـ) المحقق: محمد أمين الصناوي، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٧ هـ .
- مفاتيح الغيب ، المؤلف : الإمام العالم العلامة والحبر البحر الفهامة فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي، دار النشر : دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠ م، الطبعة : الأولى.

- نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور، المؤلف : الإمام / برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعى، دار النشر / دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة الثانية / ٢٠٠٢ م ـ ١٤٢٤ هـ .